رسائل الكندى

بقلم :
الدكتور عبد الحليم محمود

والكندى هو أبو يوسف يعقوب بن اسحاق ابن الصباح ٠

وهو أول فيلسوف مسلم ، نشأ فى ربوع الاسلام ، وهو عربى أصيل : من قبيلة كنده ، وكان من أجداده : الأشعث بن قيس الذى وقف أمام كسرى يقول :

لقد علمت العرب أنا نقاتل عديدها الأكثر ، وقديم زحفها الأكبر ؛ وأنا غياث اللزبات ٠

واستفسر الحاضرون عن تعليل ذلك فقالوا له :

لم يا أخا كندة ؟

فقال :

لأنا ورثنا ملك كندة : فاستظللنا بأفيائه ، وتقلدنا منكبه الأعظم ، وتوسطنا بحبوحه الأكرم.

وكان الأشعث أول من أسلم من أجداد الكندى ، وكانت له مواقف مشهورة فى الاسلام ، وأقام بالكوفة الى أن انتهت به الحياة ٠

أما والد الكندى فقد كان شخصية لها مكانتها المرموقة : فقد تولى — فى عهد الخليفة المهدى — ولاية الكوفة ، وهى ولاية كانت تطمح اليها أنظار كبار رجال الدولة من بيت الخلافة ومن غيرهم ٠

ولقد أعطى الشيخ اسحاق بن الصباح المنصب حقه من أبهة الولاة ، ومن كرمهم فقصده الشعراء وذووا الحاجات ، وفيه يقول الشاعر « نصيب » ٠

أغر ، لأبناء السبيل موارد
الى بيته ، تهديهمو ، وطريق

وان عد أنساب الملوك وجدته
الى نسب يعلوهمو وطريق

وقد ولد الكندى فى الكوفة سنة ١٨٥هـ وما كاد يتنسم الحياة ويترعرع فيها حتى توفى والده ، فقامت على تربيته والدته ونشأته فى التعليم على الطريقة المعتادة حينئذ من دراسة الثقافة الدينية والعربية ٠

وبعد أن أخذ فى الكوفة حظا من الثقافة والعلم

انتقل الى بغداد التى كانت اذ ذاك حاضرة العالم الاســلامى الفكــرية ، كما كانت حاضرة العالم الاسلامى فى الملك والخلافة .

وفى بغداد أخذ الكندى يغترف من كل صنوف المعرفة .

وان قائمة مؤلفاته التى ذكرها المؤرخون لتدل دلالة واضحة على المدى الواسع الذى وصل اليه فى آفاق المعرفة والعلم .

يقول ابن النديم :

« وقد يقع فى تعداد كتب الكندى خلاف بين المؤرخين ، بالزيـادة والنقص ، ولكنهم متفقـون على أن له فى أكثر العلوم ، مؤلفات من المصنفات الطوال والرسائل القصار .

وأخذ ابن النديم يعد كتب الكندى فلم يعدها كتبا كتبا ، وانما نوعها وصنفها أجناسا ، ثم أخذ يذكرها فيقول مثلا :

كتبه الفلســفية ، كتبــه الهندسـيات ، كتبــه السياسيات ، كتبه المنطقيه ، كتبه الموسيقيات ، كتبه الفلكيات ، كتبه الحسابيات ، كتبه الطبيبات ، كتبه النفسـيات ... وهكذا ، لقد ذكر له ابن النديم سبعة عشر نوعا ، وفى كل نوع منها ألف الكندى كتبا ورسـائل تختلف طولا وقصرا ، أو بسـطا وايجازا .

ومن هذه القائمــة نعلم أن الكنـدى ألف فى الموسـيقى ، والواقع أنه كان يعـرف الموسـيقى نظريا ، ويعرف الموسيقى عمليا .

لقد مارسها عازفا بعد أن أتقن قواعدها نظريا وأجادها الى درجة التأليف فيها .

ونعـلم أنه ألف فى الفـلك ، ولقـد بلغت به اجادته لعلم الفلك ، أن فيلســوفا من فلاسـفة النهضــة فى أوربا ومؤرخـا من مؤرخيهـا هو : « كوردان » كتب عن الكندى ، فعده واحدا من ثمانية هم ذروة العلوم الفلكية وأئمتها .

ولقد كتب الكندى فى الرياضة بمختلف ألوانها من حساب وجبر وغير ذلك .

وكتب فى الطب وقد بلغت اجـادته للطب أن كان يتخذ الموسيقى وسيلة من وسائل العلاج فكان يمزج بين العقاقير والأدوية والموسـيقى ويكوّن ــ حينما يقتضى الأمر ــ من كل ذلك وحدة واحدة فى خدمة المريض .

أما الفلسفة البحته فقد درسها الكندى فى عمق ، وألف فيها كتبـا ذات أصالة أصيلة ، وهى التى من أجلها سمى فيلسـوفا وذلك يرشـد الى أن براعتــه فيها فاقت كل براعــه : يقـول المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق فى كتـابه فيلســوف العرب والمعلم الثانى .

كان الكندى رجلا منصرف الى جد الحيـاة ، عاكفا على الحكمة ، ينظر فيها التماسا لكمال نفسه .

ويقـوم بأول محـاولة لتوطئتها ، أو مدافعـة ما يعـوق قومه عن الاقبـال عليهـا من العصـبية الجنسـية ، والعصبية الدينية » .

ولقد امتز الكندى بالاتزان ، وحب الهدوء ، والتفرغ للمعرفة ، وكان ذا عقلية ممتازة الى درجة أن «كوردان» يعده واحدا من اثنى عشر فى العالم كله ، هم أنفذ الناس عقلا وأقواهم فكرا .

ويقول عنه المرحوم الشيخ مصطفى عبدالرازق :

« وقد كان الرجل ، فى خلقه وعقله ، من أعظم ما عرف البشر •

ولقد احتل الكندى المكانة التى تليق به ، من ناحية علمه، ومن ناحية نسبه وحسبه فنال التقدير فى قصور الخلفاء ، واصطفاه المعتصم مؤدبا لابنه أحمد ، وكان بينه وبين أحمد بن المعتصم مودة وصداقة •

وكانت دولة المعتصم ـ على حد تعبير ابن نباته ـ تتجمل به وبمصنفاته • هذه المكانة خلقت له حسادا وخصوما • ومع أن الكندى لم يكن يطمح الى منصب رسمى فى القصر ، أو فى تولى ولاية فى الدولة الاسلامية • ومع أنه لم يكن ينافس طلاب المال أو الجاه فى أمر من أمورهم • ومع أنه ـ وقد هيأ الله له من الثراء ما يكفيه ـ كان منصرف انصرافا يكاد يكون تاما ، الى كتبه وأبحاثه وثقافته الخاصة • مع كل ذلك لم يتركه الآخرون هادئا مطمئنا •

ولقد وصل بهم الأمر الى درجة أن أوغروا صدر المتوكل عليه ، فصادر مكتبته ـ وكانت مكتبة عظيمة ـ وأفردها فى خزانة سميت الكندية ثم هيأ الله الأسباب ، لاسترداد الكندى مكتبته، واعتكف اعتكافا تاما ، الى أن وافته منيته ، على الراجح ، أواخر سنة **٢٥٢** هـ رحمه الله رحمة واسعة •

رسائل الكندى

ورسائل الكندى مختلفة متنوعة باختلاف الفنون التى كتب فيها الكندى ، والتى ذكرنا منها البعض فيما سبق ، ومنها الطب والموسيقى والهندسة وغيرها •

والذى يعنينا هنا على الخصوص : انما هى رسائله التى سمى من أجلها فيلسوف ، أى الرسائل التى تبحث فى الفلسفة البحتة ، أو فيما سماه الكندى الفلسفة الاولى •

والفلسفة الاولى هى: مايعبر عنه: «بالميتافيزيقا» ويعبر عنه بالالهيات ، وهى فى التعبير القرآنى : الغيب • يقول سبحانه ، عن المتقين :

« الذين يؤمنون بالغيب »

والغيب الذى يريده هنا سبحانه ، هو كل ما يمكن أن تدل عليه كلمة : ما وراء الطبيعة. ورسائل الكندى فى موضوع الفلسفة الأولى كانت ـ الى زمن قريب نسبيا ـ مفقودة ، ومن أجل ذلك : فان المؤرخين للفلسفة فى العصر الحديث لم يتمكنوا من الكتابة عنه فى دقة • ولقد حاولوا أن يشرحوا أفكاره على ضوء أفكار الفارابى ، وابن سيناء ، أو على ضوء أفكار ابن رشد ، ومن أجل ذلك : لم يعبروا عن فكرته ، تعبيرا دقيقا •

ثم يسر الله العثور على بعض هذه الرسائل فنشر بعضها بعض المستشرقين ، ونشر بعضه الأستاذ الفاضل الدكتور فؤاد الاهوانى ، وحقق الكثير منها ونشره الاستاذ الفاضل الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريده ، ثم نشر آخرون رسائل مختلفة وترجموا عن اليونانية بعض الرسائل أيضا •

واكتملت بذلك الصورة ـ بالقدر الكافى ـ عن الكندى •

وفكرة الكندى فى رسائله الفلسفيه تدور حول أمور محدودة أهمها :

١ ـ نظرية المعرفة •

٢ ـ التعريف بالفلسفة : فيما يتعلق بالأسباب الباعثة على دراستها ، وفيما يتعلق بموضوعها ، وفيما يتعلق بغاياتها وثمارها •

٣ ـ اثبات وجود الله •

٤ ـ الأخلاق •

ولا تكاد تخرج رسائل الكندى الفلسفية عن ذلك •

وسنحاول أن نسير فى عرض فكرة الكندى فى رسائله على هذا الترتيب الذى نعتبره ترتيبا طبيعيا.

أما عن نظرية المعرفه فيها فانها تحتل مكانة الآن هى من الأهمية بحيث يعتبرها بعض الفلاسفه نصف الفلسفة •

والواقع أن الجدل فيها فى العصر الحديث استفاض استفاضة لا تكاد تحد •

أما السبب فى هذه الاستفاضة فى الحديث عن نظرية المعرفة ، فهو ما يتسم به العصر الحديث من وضع كل أمر ـ يسيرا كان أو كبيرا ـ موضع النقد والشك •

لقد استفاض ديكارت فى ايضاح فكرة الشك، ولقد كان بارعا فى عرضها •

ثم حاول الخروج عقليا من الشك الى اليقين ، فلم يكن فى ذلك فى مستوى براعته فى عرض الشك •

ان ديكارت حينما وضع نواة الخروج من الشك الى اليقين بقضيته المشهورة : « أنا أفكر اذن ، أنا موجود » •

حاول أن يرد اليقين فى هذه القضية الى المنطق العقلى ، والترتيب الذهنى ، بيد أن مرد اليقين فى هذه القضية الى الشعور أكثر منه الى المنطق العقلى ، فأنا موقن بوجودى لأنى أشعر به ، ولو لم يكن هذا الشعور بالوجود ، لما كانت قضية ديكارت بداهة بديهية ، ويقينا لا شك فيه ، ومثل هذه القضية فى الشعور الانسانى كمثل الألم الذى يحس به الانسان مباشرة ، أو الجوع أو السرور أو غير ذلك من أنواع الشعور ، وهى أمور لا تتسم بأن الدليل عليها العقل ، وانما هو الشعور •

وأعلن ديكارت منهجه مباهيا ومفاخرا ومتحديا ، وأعلن فى أسلوب جازم أنه منهج معصوم ، وطبق ديكارت منهجه ووصل به الى نتائج ، فلم تلبث التجارب أن أثبتت خطأ نتائجه التى بناها على منهجه المعصوم •

وكان هذا التحدى من جانبه وهذه التخطئه له من جانب التجربة منطقيا طبيعيا للاستفاضة فى موضوع الشك واليقين فى المعرفة •

ومن الحق أن نقول : ان ديكارت ليس أول من اصطنع الشك كمنهج ، وأن أسلوبه فى ذلك يكاد يشير أو يعلن أنه تأثر بالامام الغزالى ، وبغيره ممن اصطنعوا هذا المنهج •

ولكن من الحق أيضا : أن المنطق فى العصر الحديث فى الاستفاضة فى نظرية المعرفة ، انما كان على الخصوص من ديكارت •

ولقد تحدث الكندى فى أكثر من موضع من رسائله عن نظرية المعرفة ولكنه لم يصطنع الشك منهجا :

ان الحيـاة تسـير مطردة ، ونواميسـها ثابته ، وقوانينها مستقرة ، فعلام الشك ؟ وما المبرر له ؟ فالشك في حقيقة الأمر ثمرة مرض نفس يزول بزوال المرض • ومن أجل ذلك لم يجعل الكندى في فلسفته مكانا للشك •

وقسم المعرفة ـ من حيث الوسائل ـ الى أقسامها الطبيعية المعروفة : فهى تبدأ أولا بالحواس ، أى تبدأ : « عند مباشرة الحس محسـوسه » وهى تحـدث بمجـرد هذه المباشرة : « بلا زمان ولا مؤونة » •

وهذه المعـرفة فى صيرورة دائمـة ذلك أن موضـوعها يتبـدل فى كل لحظة : « بأحد أنواع الحركات وتفاضل الكميـة فيه بالأكثر والأقل ، والتساوى وغير التسـاوى ، وتغـاير الكيفية فيه بالشـبيه ، والأشـد ، والأضعف ، فهو الدهر فى زوال دائم ، وتبدل غير منفصل » •

وهذه المعـرفة الحسـية تنتقـل من الحس الى المصورة ، وتسلمها المصورة الى الحافظة •

وموضوع المعـرفة الحسـية انمـا هو المادة : « فالمحس أبدا : جرم ، وبالجرم » •

وما دامت طبيعة الجرم ، وطبيعة ما هو بالجـرم فى صيرورة دائمة ، وتغير مستمر ، فان المعـرفة الحسـية ، لا يتأتى أن تصـل الى ادراك حقيقـة الأشياء ، ولا يتأتى أن تصل الى مفهومها الكلى ، انها تدرك جزئيـات متفـرقة منفصلة ، لا رابطة بينها •

« اذا كانت الحواس كوسيلة للمعرفة ضرورية ، واذا كانت مع ذلك قاصرة عن ادراك الحقيقـة ، فان الوسيلة الثانية للمعرفة تسد هذا النقص » •

وهذه الوسيلة الثانية : هى الادراك العقلى •

واذا كانت الحواس تدرك جزئيات : فان العقل يدرك الكليات •

واذا كان الجـزئى انمـا هو : « الأشخـاص للأنواع » فان الكلى هو : « الأجناس للأنواع ، والأنواع للأشخاص » •

والكلى لا يقع تحت حس ، ولا يدرك بحاسة ، انه تجـريد وطرح للأعراض الزائلة المختلفة ، المتغيرة ، واسـتبقاء المشـترك العام • فاننا حينما ندرك معنى الانسانية ـ ولا يتأتى ذلك الا بالعقل ـ فان ذلك انما يكون بتجريد الانسان الذى نراه عن اللـون ، وعن الطـول ، وعن القصر وعن السمنة ، والنحافة ، وغير ذلك مما نراه بالحس ، ويتبقى بعد هذا التجريد « الحيوانية والناطقية » وهما القـدر المشـترك العـام بين جميع أفراد الانسان •

والانسانية اذن ـ وقد جـردت من كل ما هو محس ـ لا صورة لها تتمثل فى الذهن ، وبذلك يفرق الكنـدى بين دائرتين من دوائر المعرفة ، احداهما لها صـورة تتمثل فى الذهن والأخـرى لا صورة لها تتمثل فى الذهن •

ولا ينتهى الكندى عند هذا الحد ، وانما يخرج من ذلك الى أبحاث طريفة تعتبر فى عصرنا الحاضر جـديدة مع أنها قديمـة قدم الكنـدى تلك هى الأبحاث الخاصة بمناهج العلوم •

لقد أدت فطنة الكندى به الى التفرقة بين مناهج العلوم بسبب اختلاف موضوعاتها ، ان لكل علم منهجا ينسجم معه ، وطبيعـة العلوم وموضوعاتها هى التى تحدد المنهج : « واذا استعمل الانسـان

منهجا واحدا ـ كما يقول الكندى ـ فقد قصر عن تميز المطلوبات » .

ولقد : « ضل أيضا كثير من الناظرين فى الأشياء التمييزية ، انهم استعملوا منهجا واحدا لكل الأشياء » .

ويبين الكندى أنواع الضالين بسبب المنهج الواحد فيقول :

« فمنهم من جرى على عادة طلب الاقناع

« وبعضهم جرى على عادة الأمثال .

وبعضهم جرى على عادة شهادات الأخبار

وبعضهم جرى على عادة الحس

وبعضهم جرى على عادة البرهان »

ويبين الكندى بعض الأسباب التى جعلت بعض الباحثين يتبع منهجا واحدا ، من هذه الأسباب : « تقصيرهم عن علم أساليب المطلوبات » .

ولذلك يقدم الكندى هذه النصيحة الحكيمة .

ينبغى أن نقصد بكل مطلوب مايجب، ولانطلب فى العلم الرياضى اقناعا ، ولا فى العلم الالهى حسا ولا تمثيلا ...

ولا فى البلاغة برهانا ، ولا فى أوائل البرهان برهانا ــ فانا ان تحفظنا هذه الشرائط سهلت علينا المطالب المقصودة ؛ وان خالفنا ذلك أخطأنا أغراضنا من مطالبنا ، وعسر علينا وجدان مقصوداتنا .

وهذا الذى يذكره الكندى من التميز بين المناهج تبعا لاختلاف موضوعات العلوم : فى غاية النفاسة وهو حق كله ، وكم نأسف لأن ذلك لم يكن واضحا فى بعض أذهان المتكلمين مثلا فحاولوا تمثيل العالم الالهى بعالمنا ، بل حاولوا تصور الذات الالهية وأثبتوا الجهة والفوقية ، وغير ذلك والله سبحانه وتعالى يقول :

« ليس كمثله شىء »

ومع تنبيه الله سبحانه هذا ، ومع قوله تعالى :

سبحان ربك رب العزة عما يصفون »

فان قوما خاضوا فى ذلك وأثبتوا ما يتنافى مع الحق فضلوا وأضلوا . والحكمة كل الحكمة بصدد ذلك هو ما قاله الكندى : من أنه يجب أن لا نطلب فى العلم الالهى حسا ولا تمثيلا .

ونعود الى نظرية الكندى فى المعرفة ، فنرى أنه لم يقتصر ، فى وسائل المعرفة ، على الحس والعقل ، وانما سار فى هذا المنهج الاشراقى الذى يقول به جميع فلاسفة الاشراق ، مثل : فيثاغورس وافلاطون وأفلوطين . ويقول به جميع الصوفية فى القديم والحديث .

وهذا النهج الاشراقى يقر بوسيلة ثالثة للمعرفة، هى : البصيرة التى ينتج عنها الالهام والكشف والاشراق ، وليست الوسيلة فى ذلك هى المعرفة الكسبية العقلية ، وانما وسيلة تزكية النفس وصفاؤها .

والمعرفة الاشراقية فى ذروتها العليا خاصة بمن يصطفيهم الله للنبوة والرسالة ، واذا كانت النبوة والرسالة اصطفاء من الله :

« الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس »

فان الله سبحانه وتعالى قد فتح باب القرب منه بالمجاهدة وتزكية النفس :

الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب » •

كيف السبيل الى تزكية النفس والوصول عن طريق ذلك الى القرب والكشف والالهام والاشراق ؟

ان الكندى يؤمن مع سابقيه من فلاسفة الاشراق، ومع معاصريه من الصوفية ومع مايوحى به الجو الاسلامى كله : يؤمن كما يقول بأسلوبه بأن :

« النفس ، اذا كانت ، وهى مرتبطة بالبدن ، تاركة للشهوات متطهرة من الأدناس كثيرة البحث والنظر فى معرفة حقائق الأشياء ، انصقلت صقالة ظاهرة ، واستنارت بقبس من نور البارى ، بسبب ذلك الصقال الذى اكتسبته من التطهر ، فحينئذ يظهر فيها صور الأشياء كلها ومعرفتها، كما يظهر صور خيالات سائر الأشياء المحسوسة فى المرآة ، اذا كانت صقلية •

واذا بلغت هذه النفس مبلغا فى الطهارة ، رأت فى النوم عجائب من الأحلام وخاطبتها الأنفس التى قد فارقت الأبدان ، وأفاض عليها البارى من نوره ورحمته ، فتلتذ حينئذ لذة دائمة فوق لذة تكون بالمطعم والمشرب ، والنكاح والسماع ، والنظر والشم واللمس ؛ لأن هذه لذات حسية دنسة تعقب الأذى ، وتلك لذة الهية ، روحانية ملكوتية ، تعقب الشرف الأعظم ، والشقى المغرور الجاهل : من رضى لنفسه بلذات الحس ، وكانت هى أكثر أغراضه ومنتهى غايته » •

الفلسفة

ويتحدث الكندى هنا وهناك فى رسائله الفلسفية عن تعريف الفلسفة ، وعن غايتها وهدفها ، ويحاول هنا وهناك أيضا بطريق مباشر أو بطريق غير مباشر أن يشعر القراء بأن الفلسفة تسير مع الدين ، فى ركابه ، مؤيدة وموضحة •

ويحمل الكندى فى أسلوب عنيف على المعارضين للفلسفة : انه حينما يتحدث عن المعارضين للفلسفة يتخلى عن وقاره وهدوئه ، ويستعمل أسلوبا غير فلسفى •

انظر اليه يقول عنهم :

انهم غرباء عن الحق وان كانوا يتوجون بتيجان الحق من غير استحقاق •

ان فى فطنهم ضيقا عن أساليب الحق ، وفى نفوسهم حسد متمكن يحجب أبصارهم عن نور الحق •

وهم انما يفعلون ذلك : « ذبا عن كراسيهم المزورة التى نصبوها عن غير استحقاق ، بل ، للترؤس ، والتجارة بالدين ، وهم عدماء الدين »

ويصل الأمر بالكندى فى ثورته هذه على المعارضين للفلسفة ان يستعمل أسلوبا سوفسطائيا فى الرد عليهم •

انظر اليه فى سفسطته يقول : ان المعارضين يلزمهم دراستها : فانهم اما أن يقولوا : ان اقتناء الفلسفة يجب ، أو يقولوا : انه لا يجب •

« فان قالوا : انه يجب ، وجب طلبها عليهم•

وان قالوا : انها لا تجب ، وجب عليهم أن يحضروا علة ذلك ، وأن يعطوا على ذلك برهانا•

واعطاء العلة والبرهان : قنية علم الأشياء بحقائقها •

فواجب ، اذن طلب هذه القنية ... والتمسك بها ص ٣١٢ تفكير .

وأسلوبه هذا ، ومحاولته دائما تبرير وجود الفلسفة ، وحديثه عن الدين مناصرا له يشعرنا أنه تعمد ذلك لرد هجمات يبدو أنها كانت عنيفة على كل متفلسف .

وما من شك فى أن الكندى أتى فى عصر لم يكن قد ألف بعد الفلسفة ألفة تامة فكان عليه أن يناضل بشتى الأساليب ليوطىء له ، ولأفكاره مكانة فى المجتمع الاسلامى .

ولقد عرّف الكندى الفلسفة بعدة تعريفات ، ولعل كثرة تعريفاته للفلسفة كانت هى الأخرى محاولات لتهدئة الجو بالنسبة للفلسفة .

وانظر مثلا قوله فى تعريف منها انها محاولة لتحقيق :

« التشبه بأفعال الله تعالى بقدر الطاقة الانسانية » ويتبع الكندى هذا التعريف بقوله :

« أرادوا (أى الفلاسفة) أن يكون الانسان كامل الفضيلة » .

وتعريف آخر ، يسير مع سابقه فى نسق ، وذلك : ان الكندى يعرفها أيضا بأنها :

« العناية بالموت » .

ويقصدون : أى الفلاسفة ، اماتة الشهوات ، فهذا هو الموت الذى قصدوا اليه ، لأن اماتة الشهوات هى السبيل الى الفضيلة ، ولذلك قال كثير من أجلة القدماء :

اللذة شر

وما دامت الفلسفة هى المحاولات للتشبه بأفعال الله ، ما دامت هى الربانية ، وهى كمال الفضيلة ، وهى اماتة الشهوات ، لأن ذلك هو السبيل الى الفضيلة ... فمن ذا الذى يعيبها ، أو ينتقدها ؟

ولكن الكندى اذا كان قد عرفها بذلك دفاعا عنها وتبرئة لساحتها فانه يستقيم فى أمرها حينما يبدأ فى أخذ الطريق التقليدى فى تعريفها بأنها ـ اذا نظرنا الى الاشتقاق ـ حب الحكمة .. وذلك لأنها مركبة من كلمتين ، احداهما : فيلو ، والأخرى : سوفيا ، وهما يعنيان : حب الحكمة .

ويستقيم الكندى أيضا حين يعرفها بتعريفها التقليدى :

« علم الأشياء الأبدية الكلية : انياتها ، ومائيتها ، وعللها بقدر طاقة الانسان » .

وهو تعريف يذكره الفلاسفة بعد الكندى ، مختصرا واضحا ، فيقولون عن الفلسفة ، انها : العلم بحقائق الأشياء .

وذلك هو ما أراده الكندى بتعريفه الأخير .

ومهما يكن من شىء فان الفلسفة فيما يرى فيلسوفنا .

« أعلى الصناعات الانسانية منزلة ، وأشرفها مرتبة ، وذلك لأن ؟

غرض الفيلسوف فى علمه : اصابة الحق ، وفى عمله : العمل بالحق » والفلسفة لفظ يطلق على زوايا كثيرة من المعرفة ، فاذا أردت أشرف هذه الزوايا ، وأرقى أنواع المعرفة ، وأسمى درجات العلم فانه :

الفلسفة الأولى :

وتتساءل : ما هى الفلسفة الأولى ؟

ولقد ألف الكندى رسالة خاصة ، مستفيضة فى الفلسفة الاولى :

« وأشرف التفلسف ـ فيما يرى ـ الفلسفة الأولى ، أعنى : علم الحق الأول ، الذى هو : علة حق ؛ ولذلك يجب أن يكون الفيلسوف التام الأشرف : هو المرء المحيط بهذا العلم الأشرف ؛ لأن علم العلة : أشرف من علم المعلول؛ لأننا انما نعلم كل واحد من المعلومات علما تاما ، اذا نحن أحطنا بعلم علته » .

اذا كان الأمر كذلك : « فيحق » ما سمى علم العلة الأولى : « الفلسفة الأولى » ؛ اذ جميع باقى الفلسفة منطو فى علمها ، واذ هى أول بالشرف ، وأول بالجنس ، وأول بالترتيب من جهة الأيقن علمية وأول بالزمان ، اذ هى علة الزمان » . ص ٣١١ تفكير .

ان الفلسفة ـ فيما يرى الكندى ـ تثبت بالمقاييس العقلية ما أتت به الرسل وتنتهى بمقاييسها العقلية الى النتائج التى أنزلت من السماء .

ولذلك :

« يحق أن يتعرى من الدين من عاند قنية علم الأشياء بحقائقها ، وسماها كفرا » .

والواقع أن الكندى يقيس كل الفلاسفة بمقياس نفسه المطمئنة الى العقيدة ، ومن أجل ذلك ، لم تكن نظرته الى الفلاسفة صادقة كل الصدق .

وجود الله

ولقد تحدث الكندى فى أكثر من رسالة عن : وجود الله وهو يقيم دليلين على ذلك :

أما أحدهما : فهو دليل قد سُبق به ، انه دليل عالمى .

تحدث به القدماء من مليين ، وفلاسفة ، وتحدث به معاصرو الكندى : انه الدليل الذى يستند الى دلالة الأثر على المؤثر ، لقد أقامه سقراط على وجود الله ، وأقامه الفلاسفة الالهيون ، منذ العهد اليونانى القديم ، وأقامه الفارابى ، وابن سينا ، وغيرهم.. بعد الكندى .

يقول الكندى : ليس أثر الصنعة من باب أو سرير أو كرمس بما يظهر فيها من تقدير ، وتأليف ، على الأمر الأتقن ، بأظهر من ذلك فى هذا الكون (العالم) لذوى العيون العقلية الصافية » .

ويقول أيضا :

ان فى نظم هذا العالم وترتيبه ، وفعل بعضه فى بعض ، وانقياد بعضه فى بعض ، وتسخير بعضه لبعض ، واتقان هيئته على الوجه الأصلح ، فى كون كل كائن ، وفساد كل فاسد ، وثبات كل ثابت ، وزوال كل زائل : لأعظم دلالة على أتقن تدبير ـ ومع كل تدبير مدبر ـ وعلى أحكم حكمة ـ ومع كل حكمة حكيم ـ لأن هذه جميعا من المضاف . ص ٣١٩ تفكير

ونعطى هنا ايضاحا لهذا الدليل ، بأسلوب سقراط حسبما شرحه المستشرق « سانتيلانا » فى مخطوطه الموجود بدار الكتب المصرية ، يقول سقراط :

ان صانع الانسان ـ فى أول نشأته ـ جعل له آلات الحس ، لما فى تلك الآلات من المنفعة الظاهرة ، فأعطاه : البصر ، والأذنين ليبصر

ويسمع ما يكون لعيشه صادقا ، وما فائدة الروائح لو لم تكن لنا الخياشيم ؟!؟

وكيف ندرك المطاعم ، ونفرق بين الحلو ، والمر ، والمز ، لو لم يكن لنا لسان نذوق به ؟!

ان بصرنا معرض للآفات ، أو لست ترى كيف اعتنت القدرة الالهية بذلك ؟ فجعلت الأجفان كالأبواب لتمنع ما يصيب البصر ؟! وجعلت الأهداب كالمناخل لتقيهما من أضرار الرياح ؟!

أما رأيت الحيوانات ، كيف رتبت أسنانها المقدمة، وأعدت لقطع الأشياء فتلقيها الى الأضراس فتدقها دقا !؟ ... فاذا تأملت فى ترتيب ذلك أيمكنك أن تشك : هل من فعل الاتفاق ، أم من فعل العقل ؟! ص ٣١٩ « هامش » تفكير

لقد أقام الكندى هذا الدليل على وجود الله كما أقامه الآخرون ، ولكنه تميز فى اثبات وجود الله بدليل أصيل ابتدعه ، ويبدو أنه كان شديد الاعجاب به ، اذ أنه ذكره فى أكثر من رسالة بصورة لا تكاد تتغير فى أسلوبها ، بل تكاد تكون الألفاظ هى الألفاظ .

يعتقد الكندى أن كل شىء متناه : الحركة متناهية ، والزمن متناه ، والأجرام متناهية .

ويختلف الكندى فى ذلك ، أو فى بعض ذلك مع كثير من الفلاسفة ولكنه لا يعتقد دون دليل ، وهذا الدليل يقيمه على مقدمات بدهية ، يذكرها فى كل مرة يقيم فيها الدليل .

هذه المقدمات البدهية هى ما يلى :

(أ) كل الأجرام التى ليس فيها شىء أعظم من شىء : متساوية .

(ب) والمتساوية المتجانسة أبعاد ما بين نهاياتها : واحدة ، بالفعل وبالقوة .

(جـ) وذو النهاية : ليس لا نهاية له .

(د) وكل الأجرام المتساوية ؛ اذا زيد على واحد منها جرم : كان أعظمها ؛ وكان أعظم مما كان من قبل أن يزاد عليه ذلك الجرم .

(هـ) وكل جرمين متناهيى العظم : اذا جمعا كان الجرم الكائن عنهما متناهى العظم .

وبعد هذه المقدمات البديهية ، يأخذ الكندى فى الاستدلال . فيفترض ـ خلافا لما يعتقد ـ أن هناك جرما لانهاية له ، ثم يسوق الدليل على نقيض هذه القضية بابطال النتائج التى تترتب عليها .

« فان كان جرم لا نهاية له ، فانه اذا فصل منه جرم متناهى العظم ، فان الباقى : اما أن يكون متناهى العظم ، واما لا متناهى العظم . فان كان الباقى متناهى العظم ، فانه اذا زيد عليه المفصول منه المتناهى العظم ، كان الجرم الكائن عنهما متناهى العظم ، وهذا حق ، وهو خلاف المفروض.

وان كان الباقى : لا متناهى العظم انه اذا زيد عليه المفصول منه صار أعظم مما كان قبل أن يزاد عليه أو مساويا له .

فان كان أعظم مما كان فقد صار ما لا نهاية له أعظم مما لا نهاية له ، وهذا باطل ، وان كان ليس بأعظم مما كان قبل أن يزاد عليه فقد زيد على جرم جرم فلم يزد شيئا ، ومعنى ذلك أن الكل : يساوى الجزء ، وهذا باطل .

فقد تبين : اذن : أنه لا يمكن أن يكون جرم لا نهاية له . ص ٣١٤ ، ٣١٥ تفكير .

ويمكنك أن تستبدل كلمة الجرم بكلمة الحركة ، فيستقيم الدليل ويمكنك أن تستبدل كلمة الجرم بكلمة الزمان ، فيستقيم الدليل أيضا ، وتكون النتيجة : أن العالم كله حادث ما دام متناهيا ، زمانا ، وحركة وجرما .

والحادث لا بد له من محدث :

« اذا المحدَث مُحدَث المحدِث »

انه كون أبدعه الله عن العدم ، وهذا النمط من الفعل خاص بالله سبحانه وتعالى ، فالله وحده هو الذى :

يؤيس الأيسات عن ليس »

أى يوجد الموجودات عن العدم .

وهذا الفعل هو المخصوص باسم « الابداع ».

الأخلاق

أما فيما يتعلق بالأخلاق ، فان الكندى مزج فيها بين فكرة أرسطو الأخلاقية ، وفكرة أفلاطون : فهو فيها أرسطى ، أفلاطونى ، بل ان للمدارس اليونانية الأخرى مكانة فى جو الاخلاق الكندية ، وهى فى مجموعها لا تتعارض فى قليل ولا فى كثير مع الجو الاسلامى شأنها فى ذلك شأن بقية نظرياته .

تقدير للكندى

لم ينزلق الكندى الى متاهات العقول العشرة ، وما يتبعها من أساطير توهمها الفارابى ، وابن سينا لم يثبتها نقل ، ولم تهتد اليها تجربة .

ولقد تنزه الكندى عن الأقوال الضالة التى استتبعت فيما بعد ضلالا آخر وضعوه تحت عنوان: نظرية التوفيق بين الدين والفلسفة .

ان النتائج التى وصل اليها الكندى بمنهجه العقلى لم تخرج على الاسلام ولم تكن نشازا فى الجو الاسلامى ، وما أظن أن الذين كانوا يعادونه لانغماسه فى جو الفلسفة انما كانوا يعادونه من أجل النتائج التى وصل اليها ، كلا ، وانما كانوا يعادونه من أجل المنهج الذى اصطنعه وهو المنهج الذى يريد أن يحتكم الى العقل فى الأمور التى تتعلق بعالم الغيب ، وهو منهج رفضه ذوو الشعور الدينى الصادق الذين يرون استعمال العقل على أوسع نطاق فى اثبات النبوة ، حتى اذا ما ثبتت النبوة بالادلة العقلية كان موقف المؤمن بعد ذلك انما هو الاتباع ؛ اذ على حد تعبير الامام الغزالى « عزل العقل » ، وهذا منهج منطقى : أعطى للعقل حظه واستعمله فى دوره المخصص له ، ثم بعد ذلك أعطى للوحى سلطانه :

« فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » .

وهذا شأن المؤمن ما دام مؤمنا ، والا كان متناقضا مع نفسه ، ومنع المنطق ذاته .

ان اثبات النبوة عقلى ، ثم يكون موقف المؤمن بعد ذلك الاتباع .

أما تقدير المؤرخين له فيكفى أن نذكر منها ما يلى :

« فيلسوف العرب ، وأحد أبناء ملوكها » .

القفطى

« وكانت دولة المعتصم : تتجمل به ، وبمصنفاته، وهى كثيرة جدا » .

ابن نباته المصرى

« كان عظيم المنـزلة عند المأمون ، والمعتصم ، وعند ابنه : احمد »

طبقات الأطباء

« كان الكندى رجلا منصرفا الى جد الحياة ، عاكفا على الحكمـة ، ينظر فيهـا التماسا لكمـال نفسه » .

ويقوم بأول محاولة لتوطئتها، أو مدافعة مايعوق قومه عن الاقبـال عليها من العصبية الجنسـية ، والعصبية الدينية » .

مصطفى عبد الرازق

« كان الكندى هادئا فى حياته ، آخذا بأسباب الاقتصاد والنظام ، وسـياسة النفس ، ومجـاهدة شهواتها ، لقد كان الرجل فى خلقـه وعقله من أعظم ما عرف البشر :

من كلام الكندى

لقد اخترنا نصا طويلا أردنا أن نبين به :

أن الكندى مع حبه هذا العميق للفلسفة فان ذلك لم يحل بينه وبين ثقته المطلقة بدينه ، وثقته المطلقة فى ايمانه .

ونريد أن نقول : انه بين فلسـفته وايمانه ، فكان فيلسوفا مؤمنا ، اتخذ الدين أساسا ، وسير الفلسفة فى ركابه وهذا هو الكندى .

العـلم الالهى بلا طلب ولا تكلف ولا بحيـلة بشرية ولا زمان ، كعلم الرسـل صلوات الله عليهم الذى خصها الله ، جل وتعالى علوا كبيرا ، أنه بلا طلب ولا تكلف ولا بحث ولا بحيـلة بالرياضات والمنطق ولا بزمان ، بل مع ارادته ، جل وتعالى ، بتطهير أنفسهم وانارتها للحق بتأييده وتسديده والهامه ورسالته ، فان هذا العلم خاصة للرسل صلوات الله عليهم ، دون البشر ، وأحد خوالجهم العجيبة ، أعنى آياتهم الفاصلة لهم من غيرهم من البشر ، اذ لا سـبيل لغير الرسـل من البشر الى العلم الخطير ، من علم الجواهر الثوانى الخفية، والى علم الجواهر الأولى الحسية ومايعرض فيها ، لا بالطلب ولا بالحيـل بالمنطق والرياضات الذى ذكرنا ، ومع زمان ؛ فأما الرسل صلوات الله عليهم وبركاتـه فلا بشىء من ذلك ؛ بل بارادة مرسلها ، جل وتعـالى ! بلا زمان يحيط بطلب ولا غيرة ـ تستيقن العقول أن ذلك من عند الله ، جل وتعالى ! اذ هو موجـود عندما عجـز البشر بطبعها عن مثله ، فان ذلك فوق الطبع وجبلها ، فتخضع له بالطاعة والانقياد ، وتنعقد فطرها فيه على التصديق بما أتى به الرسل عليهم السلام .

فانه ان تدبر متدبر جوابات الرسل فيما سئلوا عنه من الأمور الخفيـة الحقيـة ، التى اذا قصـد الفيلسوف الجواب فيها بجهد حيلته التى أكسبته علمهـا ، لطـول الدؤوب فى البحث والتروض ما نجده أتى بمثلها فى الوجازة والبيان ، وقرب السبيل والاحاطة بالمطلوب ، كجواب النبى صلى الله عليه وسلم ، فيما سأله المشركون عنه مما علمه (الله) اذ هو بكل شىء عليم لا أولية له ولا تقضيا، بل سرمدا أبدا ، اذ يقول له ، وهى طاعنة ظانة ، أنه لا يأتى بجواب فيما قصد به بالسؤال عنه ، صلوات الله عليه : يا محمد « من يحيى العظام ، وهى رميم » ؟ اذ كان ذلك عندها غير منازعة ؛ فأوحى اليه الواحد الحق ، جل ثناؤه :

« قل يحييها الذى أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم ـ الى قوله : « كن فيكون » .

فأى دليل فى العقول النيرة الصافية أبين وأوجز من أنه اذا كانت العظام ، بل ان لم تكن ، فممكن، اذا بطلت ، بعد أن كانت ، وصارت رميما ، ان تكون أيضا ؟ فان جمع المتفرق أسهل من صنعه أيسر ومن ابداعه ؛ ىما عند باريهم فواحد ، لا أشد ولا أضعف ، فان القوة التى ابدعت ممكن أن تنشىء ما أدثرت ، وكونها بعد أن لم تكن ، موجود للحس ، فضلا عن العقل ، فان السائل عن هذه المسألة الكافر بقدرة الله ، جل وتعالى ، مقر أنه كان بعد أن لم يكن وعظمه لم يكن هو معدوم ، فعظمه كان اضطرارا (بعد أن) لم تكن، فاعادتها واحياؤها كذلك أيضا ، فانها موجودة حية بعد أن لم تكن حية ؛ فممكن أيضا أن تصير حية ، بعد اذ هى لا حية • ثم بين أن كون الشىء من نقيضه موجود ، اذ قال :

« الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا ، فاذا أنتم منه توقدون » ؛

فجعل من لا نار ، نارا ، أو من لا حار حاراً ؛ فاذن اذ الشىء يكون من نقيضه - اضطراراً ؛ فان الحادث ، ان لم يكن يحدث من غير نقيضه ، وليس بين النقيضين واسطة ، أعنى بالنقيض « هو » و « لا هو » •

فالشىء اذن يحدث من ذاته ، فذاته اذن ثابتة أبداً ، أبدية (لا) أولية لها ؛ لأنه ان كان اليابس ليس من لا نار ، فهو اذن من نار ، فان كانت النار من نار ، والنار من نار ، فلا بد أن يكون سرمدا أبدا نار من نار ، ونار من نار •

فالنار اذن أبدا موجودة ، لم تكن حال ، وهى ليس ، فاذن لم تكن نار بعد أن لم تكن ، والنيران موجودة ، بعد أن لم تكن ، ودائرة بعد أن كانت؛ فلم يبق الا أن تكون النار من لا نار • وكل كائن من غير ذاته كان ، فكل ما هو كائن مكونه من « لا هو » •

ثم قال لتوضيح كون الشىء من نقيضه : « أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم !؟ » ؛ ثم قال ، لما وجب من ذلك : «بلى» ! وهو الخلاق العليم » •

ثم قال - لما فى قلوب الكافرين من الانكار من خلق السموات ، لما ظنوا من مدة زمان خلقها - قياسا على أفعال البشر ، اذ كان عندهم عمل الاعظم يحتاج الى مدة أطول فى عمل البشر ، فكان عندهم أعظم المحسوسات أطولها زمانا فى العمل - انه ، جل ثناؤه ، لا يحتاج الى مدة لابداعه مما أبان ، لانه جعل « هو » من « لا هو » ؛ فان من بلغت قدرته أن يعمل أجراما من لا أجرام ، فاخرج أيس من ليس ، فليس يحتاج - اذ هو قادر على العمل من لا طينة - أن يعمل فى زمان ، لأنه اذ كان فعل البشر لا يمكن من غير طينة ، كان فعل من لا يحتاج فى فعل ما يفعل الى طينة ، لايحتاج الى زمان - « انما أمره اذا أراد شيئا ، أن يقول له : كن ، فيكون » ، أى انما يريد ، فيكون مع ارادته ما أراد ، جل ثناؤه ، وتعالت أسماؤه عن ظنون الكافرين ، اذ ليس مخاطب ، فان هذا فى لغة العرب المخاطبين بهذا القول ، بين مستعمل ، فانما خوطبوا بعادتهم فى القول ؛ فان العرب تستعمل للشىء فى الوصف ما ليس له فى الطبع، كقول امرىء القيس بن حجر الكندى :

فقلت له ، لما تمطى بصلبه
وأردف أعجازا ، وناء بكلكل :
ألا أيها الليل الطويل ألا انجل !
بصبح وما الاصباح منك بأمثل !

والليل لا يقال له ولا يخاطب ، ولا له صلب ولا أعجاز ، ولا كلكل ، ولا نهوض ، وانما معناه أنه أحب أن يصبح •

فأى بشر يقدر بفلسفة البشر ، أن يجمع فى قول بقدر حروف هذه الآيات ، ما جمع الله جل وتعالى ، الى رسوله صلى الله عليه وسلم فيها ، من ايضاح أن العظام تحيى بعد أن تصير رميما ، وأن قدرته تخلق مثل السموات والأرض ، وأن الشيء يكون من نقيضه ؛ كلت عن مثل ذلك الأسس المنطقية المتحيلة ، وقصرت عن (مثله) نهايات البشر ، وحجبت عنه العقول الجزئية •

فأما العلم الانسانى الذى حددنا (فهو) دون العلم الالهى » •

د • عبد الحليم محمود